مقالات غير محكمة، ندوة عمارة المساجد، م ١٠ أ، ص ص ٢١٧-٢٢٧، كلية العمارة والتخطيط، جامعة الملك سعود (١٤١٩ هـ/ ١٩٩٩م)

عمارة المساجد في فلسطين بين الأصالة والمعاصرة

جهاد عوض

جامعة النجاح الوطنية

نابلس، فلسطين

ملخص البحث: يعتبر المسجد النموذج الأكثر وضوحا في عمارة المسلمين الذي لا بد أن تراعى في تصميمه مجموعة من المعايير التخطيطية الواضحة والمحددة. وقد خضعت المساجد التاريخية إلى كثير من هذه المعايير، رغم تنوعها واختلافها أحياناً وفقاً للبعد الزمني والبعد الجغرافي أو الثقافي. أما المساجد المعاصرة فقد بدأت تشهد ابتعاداً وخروجاً عن المعايير التي اتبعت سابقاً، وبدأ التنوع والاختلاف يغلب على الوحدة والخصائص المشتركة حتى في المنطقة الجغرافية الواحدة.

إن دراسة وتحليل المساجد المعاصرة في فلسطين تظهر بوضوح عدم اتباعها للمعايير العامة في تخطيط المساجد التاريخية في فلسطين على الأقل، بل وعدم وجود تأثير واضح لنماذج المساجد التاريخية المميزة في فلسطين. كما أن المساجد المعاصرة بدأت تفقد اللغة المشتركة بينها وأصبح من الصعب إيجاد حد أدنى للخصائص العامة التي تجمعها، بل إن التنوع الكبير بين هذه المساجد واختلافها أصبح السمة السائدة. وهذا يدل على الفردية في التخطيط وزيادة التأثير الشخصي للمصمم أو الجهة القائمة على التخطيط، في حين أن المساجد التاريخية كانت تخضع في تخطيطها لقواعد واضحة ومحددة شكلت نهجا ولغة مشتركة متعارف عليها من قبل الجميع.

يتناول هذا البحث دراسة وتحليل عدد من المساجد المعاصرة والقديمة في فلسطين ومقارنتها بالمعايير التخطيطية العامة للمساجد، إضافة إلى تحديد الخصائص المميزة للمساجد في فلسطين. كما تتطرق هذه الدراسة إلى بعض جوانب الاختلاف بين المساجد المعاصرة في فلسطين المحتلة عام ١٩٤٨م وبين مساجد الضفة الغربية.

المقدمة

قال تعالى ﴿ سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير ﴾ [الإسراء، آية ١]. ليس مستغربا أن تشهد الأرض المباركة، ارض الأنبياء، صحوة دينية خلال الربع الأخير من هذا القرن، نتج عنها زيادة كبيرة في عدد المساجد التي أنشئت في العقدين الماضيين. ولكن ما يثير التساؤل هو ضعف علاقة المساجد المنشأة حديثا بالتراث العريق والأمثلة التاريخية التي تزخر بها فلسطين، وعلى وجه التحديد المسجد الأقصى وقبة الصخرة المشرفة، إحدى روائع الفن المعماري الإسلامي.

إن هذه الدراسة تهدف إلى البحث عن مدى تأثر المساجد المعاصرة في فلسطين بالأمثلة التاريخية للمساجد ومدى ارتباطها بالتراث المعماري، وذلك من خلال المقارنة بين المعايير التخطيطية المتبعة في الماضي والحاضر. كما تمثل هذه الدراسة محاولة لتحديد الخصائص المميزة لعمارة المساجد في فلسطين، بما في ذلك الجزء المحتل عام ١٩٤٨م

من خلال دراسة وتحليل أمثلة قديمة ومعاصرة ومقارنتها بالمعايير التخطيطية العامة للمساجد وتحديد أوجه الشبه ونقاط الاختلاف.

إضافة للمراجع النظرية عن المساجد بشكل عام فإن هذه الدراسة تعتمد بشكل رئيسي على العمل الميداني، إذ تم توثيق ما يزيد على خمسين مسجدا،يبرز (شكل ١) بعضا منها، معظمها تم إنشاؤه خلال العقدين الماضيين ،بعد ذلك تمت دراسة وتحليل هذه المساجد وتصنيفها من خلال ملاحظة النقاط التالية:

المسقط الأفقي:

- شكل المسقط الأفقي وعلاقته باتجاه القبلة وحدود الأرض.
- قاعة الصلاة وعلاقة شكل مسقطها الأفقي باتجاه القبلة وتوزيعها الفراغي.
- شكل الصحن المكشوف (إن وجد) وعلاقته بقاعة الصلاة واتجاه القبلة.
- علاقة المداخل بقاعة الصلاة واتجاه القبلة.

القباب والمآذن:

- شكلها وعددها.
- مواقعها وعلاقتها بالمدخل والمحراب.

الواجهات الخارجية:

-أنماط الفتحات وأشكالها.

- واجهه القبلة.

الخدمات ومصلى النساء وأي مرافق أخرى.

لمحة تاريخية

يعتبر المسجد الأقصى المبارك ،أولى القبلتين، اقدم مسجد أنشئ في فلسطين في الفترة الإسلامية. ويتميز مخططه الحالي باستطالة قاعة الصلاة باتجاه القبلة، وتتألف من سبعه أروقة عموديه على جدار القبلة، إضافة إلى رواق خارجي أمام المدخل يوازي جدار القبلة ويشكل الواجهة الشمالية للمسجد المؤلفة من سبعه أقواس أوسعها وأعلاها القوس الأوسط المقابل للمدخل. ويتميز المسجد أيضا بوجود قبتين، الرئيسية فوق المحراب تقريبا والثانية فوق المدخل (شكل ٢).

إلا أن هذا النمط في تخطيط المساجد لم يصبح شائعاً في فلسطين، حيث أن المساجد التي تكون فيها استطالة قاعة الصلاة باتجاه القبلة نادرة الوجود، إذ أن معظم المساجد التاريخية في فلسطين يغلب عليها استطالة قاعة الصلاة بشكل مواز لجدار القبلة. وتجدر الإشارة هنا إلى أن المخطط السابق للمسجد الأقصى كان مستطيلاً بشكل يوازي جدار القبلة قبل أن يطرأ عليه تغيير ليأخذ شكله الحالي.

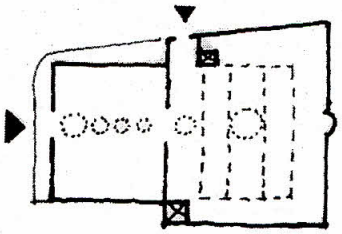

مسجد البيرة الجديد، البيرة

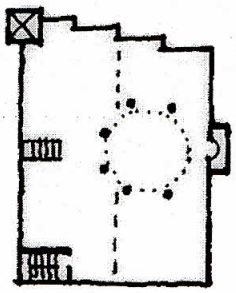

جامع عباد الرحمن، بلاطة

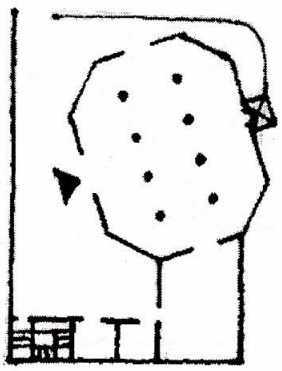

جامع عمر النابلسي، نابلس

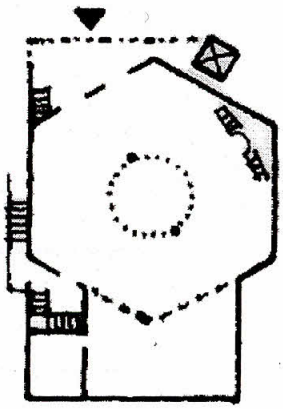

مسجد العموري، طولكرم

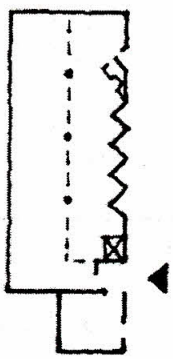

جامع الشهداء، نابلس

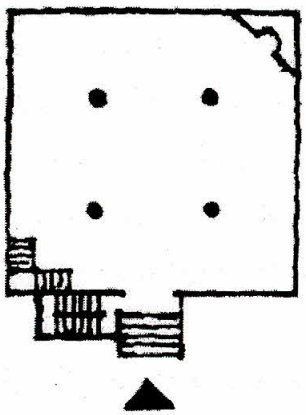

مسجد السلام، نابلس

شكل ١: نماذج لبعض الساجد التي استخدمت في الدراسة

أما قبة الصخرة المشرفة (شكل ٣) فهي حاله نـادرة ومميزة وتعتبر نموذجاً فريداً لم يتكرر في تاريخ عمارة المسلمين. ويتكون مخططها من مثمن رئيسي يشكل الجدران الخارجية للبناء، يليه في الداخل مثمن آخر من الأعمدة التي تحمل فوقها أقواساً نصف دائرية ، تليه نحو الداخل دائرة الأعمدة التي تحمل رقبة القبة. وقد غطيت الأسطح الخارجية والداخلية لبناء قبة الصخرة بالفسيفساء والأشكال الهندسية والزخارف النباتية والآيات القرآنية. والملاحظ أن تخطيط قبة الصخرة والأسلوب المستخدم في زخرفتها لم يكن له أي تأثير واضح على تطور عمارة المساجد في فلسطين. بيد أن هناك محاولات لاستخدام الشكل المثمن في تخطيط بعض المساجد الحديثة، استجابة على الأغلب لشكل قطعة الأرض وحدودها وعلاقة ذلك باتجاه القبلة.

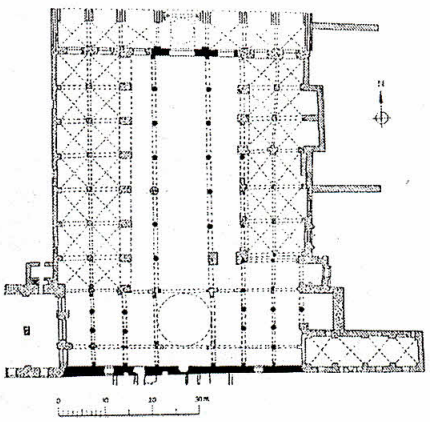

شكل ٢: المسجد الاقصى، بيت المقدس

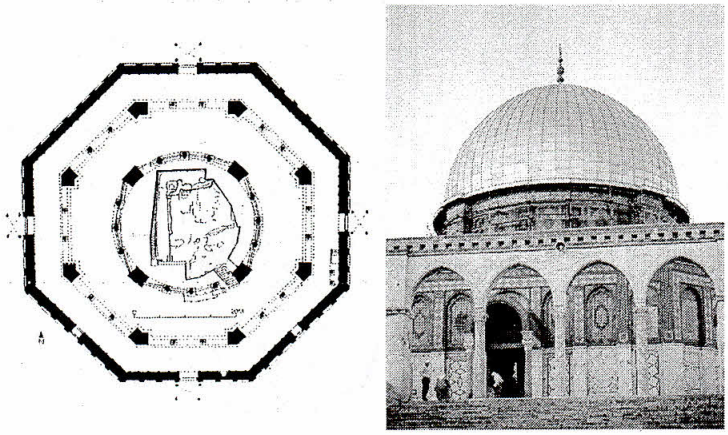

شكل٣: قبة الصخرة المشرفة، بيت المقدس

المساجد المعاصرة في فلسطين

إن تحديد واختيار موقع المسجد ، وعلى وجه الخصوص مساجد الأحياء، لا يخضع حالياً لأية معايير تخطيطية على مستوى المدينة. إذ لا يتم مسبقاً تخصيص أراض من قبل الجهات المسئولة لإنشاء مساجد عليها. وبالتالي فإن تحديد موقع المسجد يعتمد في أغلب الأحيان على الجهة التي تتبرع وتقدم قطعة الأرض لإقامة مسجد عليها. وهكذا فان وضع المسجد وشكله يعتمد إلى حد كبير على شكل ومساحة قطعه الأرض المتبرع بها. هذا بالإضافة إلى مصادر التمويل لإنشاء المسجد والتي تشكل تبرعات المحسنين الجزء الأكبر منها في معظم الحالات. كما أن هناك عدداً كبيراً من المساجد يتم تنفيذها دون تدخل أي معماري أو مهندس، و إنما يتم الاعتماد في ذلك على خبرة البنائين.

أما فيما يتعلق بتأثير شكل قطعة الأرض وحدودها على عمارة المساجد فقد لوحظ أن هناك مساجد تم تخطيط كافة أجزائها وفقاً لاتجاه القبلة فقط، وفي حالات أخرى لم يؤثر اتجاه القبلة سوى على تخطيط قاعة الصلاة في حين تأثرت باقي أجزاء المسجد بشكل الأرض وحدودها (شكل ٤).

وبعد دراسة وتحليل المساجد التي تم توثيقها ، يمكن تلخيص النتائج التي تم التوصل إليها على النحو التالي:

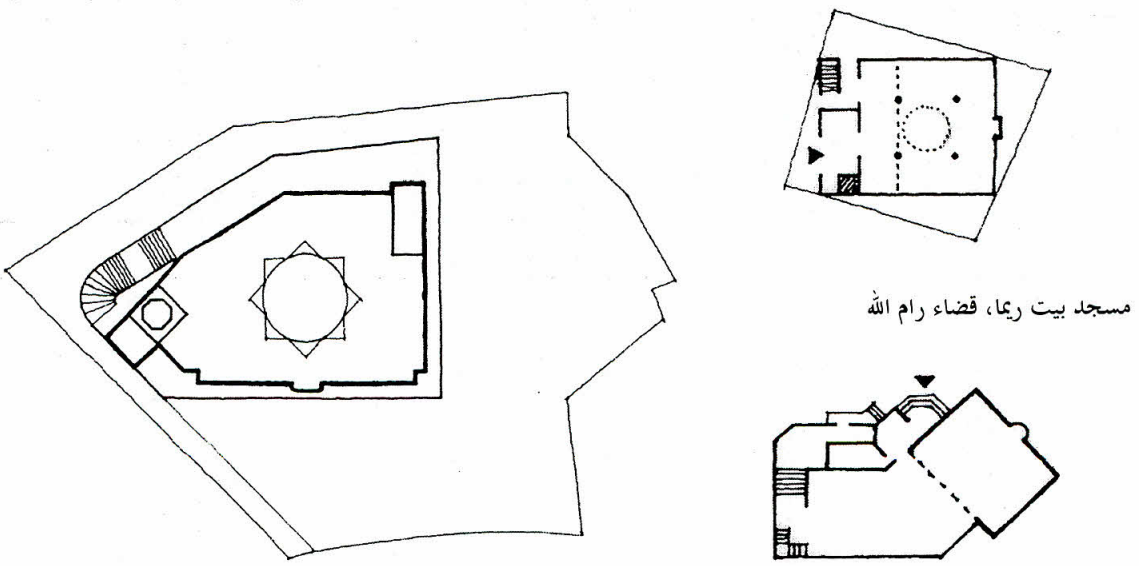

مسجد بيت ريما، قضاء رام الله

مسجد بيت فوريك، نابلس

مسجد ابو عبيدة بن الجراح، نابلس

شكل ٤ : علاقة الارض و اتجاه القبلة بوضعية المسجد

المسقط الأفقي

رغم أن المساجد التاريخية في فلسطين تميزت بقاعة الصلاة المستطيلة بشكل متعامد على اتجاه القبلة، إلا أن قاعة الصلاة في المساجد الحديثة بدأت تأخذ شكلا مربعا أو مضلعا منتظما أو غير منتظم وفقا لحدود الأرض (شكل ٥).

كما أن قاعة الصلاة في المساجد القديمة تميزت بوجود أروقة باتجاهين، وذلك نتيجة استخدام العقود المتقاطعة (Cross Vaults) في الإنشاء، و لم ينتشر نظام الأروقة باتجاه واحد، سواء عمودي أو موازٍ لجدار القبلة. أما في المساجد المعاصرة فقد تم التخلي عن فكره الأروقة داخل قاعة الصلاة، وتم الاكتفاء باستخدام الأعمدة الإنشائية والتقليل من عددها قدر الإمكان. بل أن هناك محاولات في بعض المساجد الحديثة لاستخدام أنظمة إنشائية تسمح ببناء قاعة صلاه خاليه من أي أعمدة.

وبالرغم من أن فكره استخدام الصحن المكشوف المحاط بالأروقة لم تكن منتشرة في مساجد فلسطين التاريخية، إلا أن فكرة التهيئة أمام المدخل الرئيسي لقاعة الصلاة واستخدام الرواق الأمامي الموازي لجدار القبلة، على غرار المسجد الأقصى، ما تزال تستخدم في العديد من المساجد، بما فيها المعاصرة (شكل ٦).

أما بالنسبة لمداخل قاعة الصلاة، فان معظم المساجد يتم الدخول إليها بشكل رئيسي من الجهة المقابلة لجدار القبلة، إضافة إلى وجود مدخل ثانوي أحيانا في أحد الجوانب. ومن الملاحظ ندرة وجود مساجد لها اكثر من مدخلين. أما بالنسبة لموقع المدخل الرئيسي على امتداد محور القبلة، فإن ذلك لم يشكل قاعدة ثابتة.

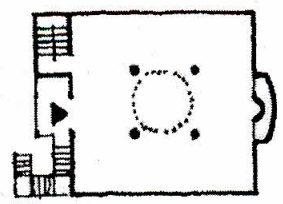

مسجد بلال بن رباح، عقربا

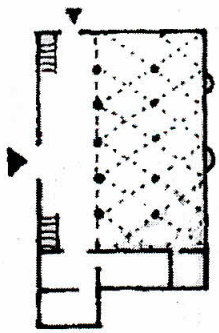

جامع الحنبلي، نابلس

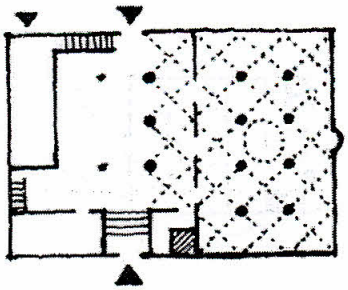

مسجد عثمان بن عفان، طولكرم

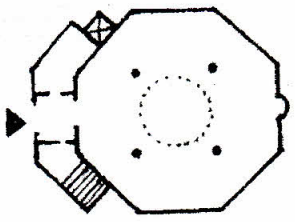

مسجد الخلفاء، رام الله

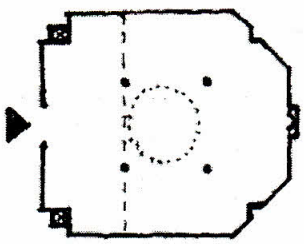

مسجد دير دبوان، رام الله

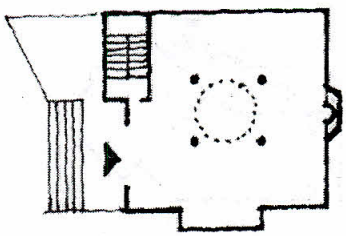

مسجد بركات ابو زغط، نابلس

شكل ٥: الاشكال المختلفة لقاعة الصلاة

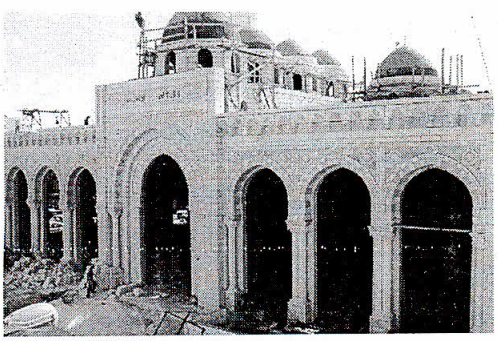

جامع البيرة الجديد، البيرة

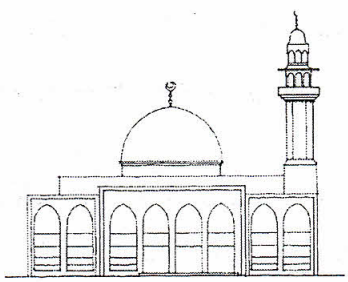

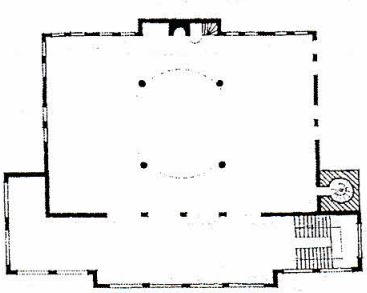

مسجد رجال العمود، نابلس

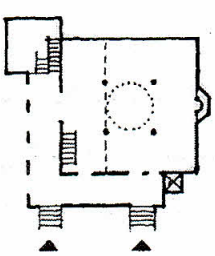

مسجد الايمان، عنبتا

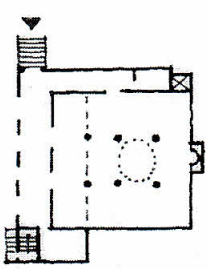

مسجد الروضة، طولكرم

شكل ٦: استخدام الرواق الامامي في المساجد المعاصرة

القباب والمآذن

إن غالبيه القباب المستخدمة في مساجد فلسطين هي من النوع المدبب أو الكروي نصف الدائري، وقد استخدم الأخير بشكل اكبر في المساجد المعاصرة. أما رقبه القبة، إن وجدت، فإنها تتكون من طبقه واحدة فقط ومن النوع البسيط، دون استخدام الحنايا الركنية أو المقرنصات للانتقال من شكل لآخر.

أما بالنسبة لموقع القبة فإنها تكاد تكون دائما في مركز قاعة الصلاة. وفي بعض الحالات النادرة تقع القبة فوق المحراب تقريبا، أو أن تكون إضافية فوق المدخل. أما تعدد القباب في قاعة الصلاة، فان ذلك يعتبر غير مألوف بالنسبة لمساجد فلسطين (شكل ٧).

أما بالنسبة للمآذن فقد كانت غالبا من النوع الاسطواني أو المضلع. ولا يوجد في المساجد الحديثة مآذن مربعة الشكل إلا في بعض الحالات الاستثنائية. وقد اتسمت المآذن في فلسطين بالبساطة وقله عدد الشرفات وعدم استخدام الزخارف أو النقوش الحجرية.

إن استخدام اكثر من مئذنة في فلسطين يعتبر أمرا غير شائع. وتقع المئذنة في الغالب بالقرب من المدخل الرئيسي للمسجد أو في أحد أركانه. ومن الحالات النادرة أن تقع المئذنة فوق المدخل مباشرة أو فوق المحراب.

الواجهات الخارجية

بينما تتميز واجهات المساجد في فلسطين بأنها مبنية من الحجر، إلا أنها تتنوع بشكل كبير في التشكيل المعماري للواجهات واستخدام أنواع عديدة من الفتحات. ويظهر هذا التنوع في استخدام المفردات المعمارية اكثر وضوحا في المساجد الحديثة، سواء في الضفة الغربية أو في الجزء المحتل من فلسطين منذ عام ١٩٤٨.

لقد استخدمت أنواع عديدة من الأقواس في الفتحات، إذ تم استخدام القوس المدبب بمختلف النسب، والقوس نصف الدائري، والقوس الفاطمي، والأقواس على شكل حدوة الفرس والأقواس الثلاثية (شكل ٨).

ومن الملاحظ انه في مساجد المناطق المحتلة عام ١٩٤٨ تم الحرص على إيجاد نوع من التماثل في معظم أجزاء المسجد. في حين كان التركيز في مساجد الضفة الغربية على الجزء القبلي من المسجد لتحقيق التماثل، سواء من الداخل أو في جدار القبلة (شكل ٩).

أما فيما يتعلق بفتحات جدار القبلة، يبدو انه لا يوجد أي تردد في استخدام فتحات سفليه وعلوية وبارتفاع جدار القبلة، بل والإكثار أحيانا من هذه الفتحات، لدرجه عدم القدرة على تمييز واجهه القبلة عن باقي الواجهات إلا من خلال كتله المحراب (شكل ١٠).

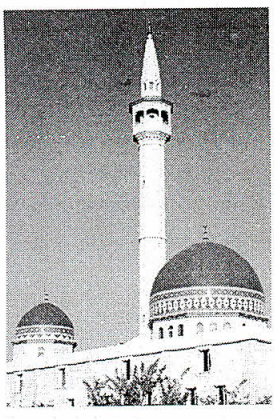
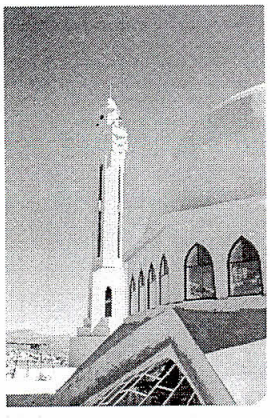
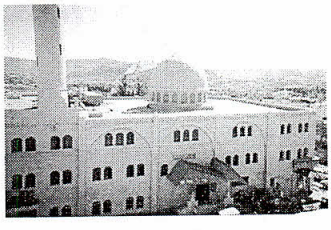
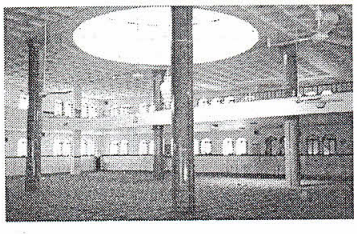

شكل ٧: اشكال القباب في المساجد الحديثة

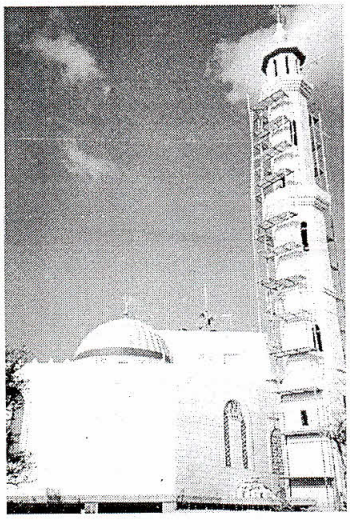
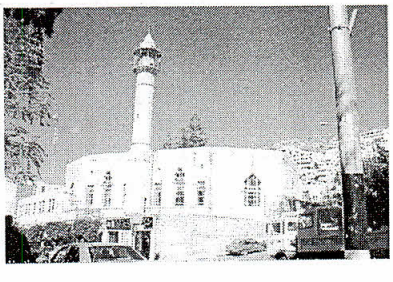
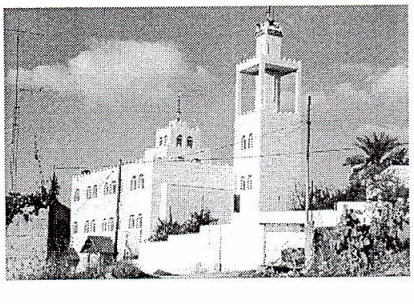

شكل ٨: التنوع في اشكال الفتحات

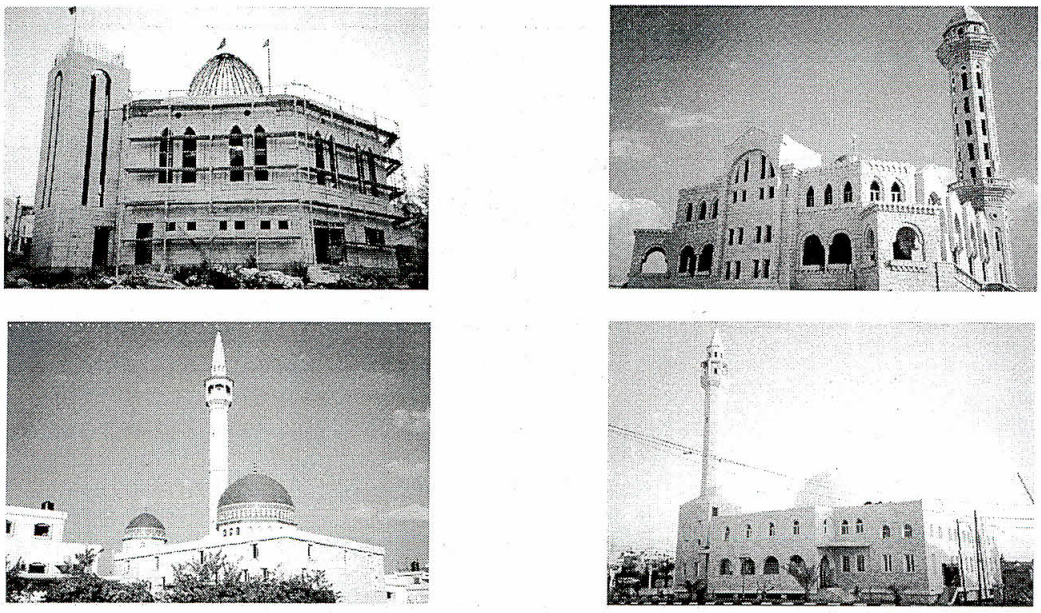

شكل ٩: مساجد من فلسطين المحتلة عام ١٩٤٨

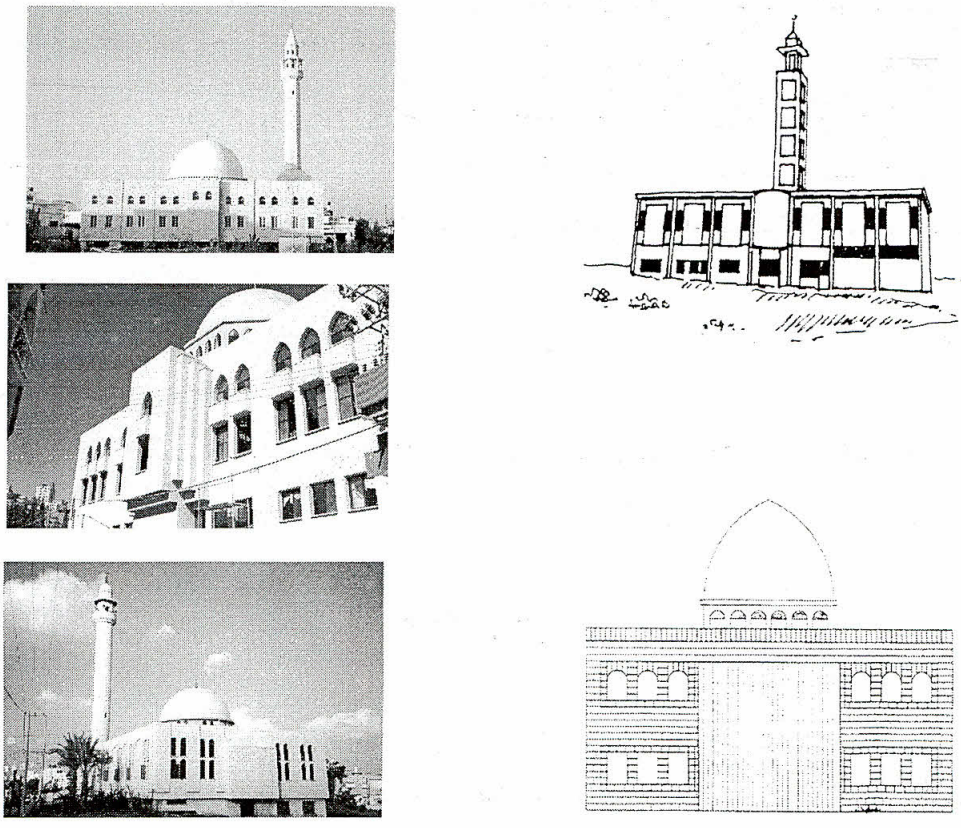

شكل ١٠: امثلة تظهر الفتحات في جدار القبلة

الخدمات والمرافق الأخرى

يبدو أن القاعدة الثابتة في تحديد موقع أماكن الوضوء والحمامات هي أن تكون في الدور السفلي، إلا إذا اقتضى الأمر جعلها في نفس دور قاعة الصلاة، وفي هذه الحالة تظل أرضيه هذه الخدمات منخفضة عن أرضيه باقي أجزاء المسجد.

وقد أصبح مألوفا في المساجد الحديثة أن يتم استغلال المناطق الواقعة تحت المسجد لاستخدامها كمرافق عامه مثل: عيادة صحية، روضه أطفال، مقر لجنة زكاة، قاعة متعددة الأغراض، وأحيانا مصلى للنساء. وقد يقتضي الأمر في بعض الحالات إلى رفع مستوى قاعة الصلاة دور أو دورين للتمكن من إنشاء هذه المرافق أو بعضها.

وفي كثير من الحالات يكون مصلى النساء عبارة عن سده تقع غالبا في الجزء الخلفي من قاعة الصلاة. بيد أنه ليس بالضرورة أن تتوفر هذه السدة في كل مسجد، أو أن تخصص هذه السدة للنساء.

الخلاصة

لا يبدو أن هناك تجديدا أو تطويرا حقيقيا في عمارة المساجد في فلسطين. وفي الوقت نفسه تقتصر علاقة المساجد الحديثة بالتراث المعماري على الاستخدام الشكلي لبعض المفردات، والتي تستخدم أحيانا بأساليب غير صحيحه. كما أن المحاولات الحديثة لا تنضوي في إطار عام يعبر عن مفاهيم مشتركة ويدل على وحده المضمون والمعايير.

إن المعايير الشخصية تصلح لبناء بيوت البشر، أما بيوت الله فان عمارتها لا بد وان تخضع لمعايير عامه. إن هذا لا يلغي التنوع، ولكن المطلوب هو إيجاد الوحدة ضمن هذا التنوع، وهذا ما تميزت به العمارة الإسلامية عبر العصور وفي المناطق المختلفة من العالم الإسلامي.

إن التنوع في الأمثلة التاريخية جاء نتيجة عوامل عديدة اجتمعت لتشكل نهجا تمثل في مدارس معمارية يفهم لغتها ومفرداتها أبناء تلك المنطقة او ذلك العصر.

إن المطلوب هو إيجاد لغة معمارية تستطيع الأجيال القادمة قراءتها للتعرف على مدرسه عصرنا الذي يمثل جزءا من مسيرة التاريخ .

قائمة المراجع

[١] مجلة" البناء" ، العدد الأول، السنة الأولى، الرياض ١٩٧٩.

[٢] مجلة "معماريون" (عدد خاص عن المساجد) ، تصدر عن الشعبة المعمارية في نقابة المهندسين الأردنيين، السنة الأولى ، العدد الثاني، عمان ١٩٩٥.

[٣] الريحاوي، عبد القادر. *العمارة في الحضارة الإسلامية*. جامعه الملك عبد العزيز، جده ١٩٩٠.

[٤] مصطفى، صالح لمعي. *التراث المعماري الإسلامي في مصر*. جامعه بيروت العربية، بيروت ١٩٧٥.

[٥] إبراهيم، عبد الباقي. *المنظور التاريخي للعمارة في المشرق العربي*. مركز الدراسات التخطيطية والمعمارية، القاهرة ١٩٨٧.

[٦] مصطفى، صالح لمعي ؛ إبراهيم ، عبد الباقي. *أسس التصميم المعماري والتخطيط الحضري في العصور الإسلامية المختلفة- دراسة تحليليه على العاصمة القاهرة*. منظمة العواصم والمدن الإسلامية، جدة ١٩٩٠.

[٧] المعهد العربي لإنماء المدن. *تخطيط المدينة العربية، الجزء الأول- المبادئ والمشكلات واتجاهات المستقبل، مجموعه أبحاث ودراسات المؤتمر الأول لمنظمه المدن العربية*. الرياض ١٩٨٩.

[٨] Hamilton, R.W. *The Structural History of the Aqsa Mosque*, 1949.

[٩] Richmond, E.T. *The Dome of the Rock in Jerusalem*, Oxford 1923.

[١٠] Creswell,K.A.C. *A Short Account of Early Muslim Architecture*, The American University in Cairo Press, Cairo 1989.

[١١] Frishman, Martin / Khan, Hassan-Uddin (eds.). *The Mosque - History, Architectural Development and Regional Diversity*, Thames and Hudson, London 1994

[١٢] Prochazka, Amjad B. *Mosques, Muslim Architecture Research Program*, Zurich 1986.

Mosques Architecture between Originality and Modernity

Jihad Awad
An-Najah University
Nablus, Palestine

Abstract: The mosque is considered as the clearer model in the muslims architecture that it is necessary to follow some clear and well defined criteria when designing it. Historical mosques have followed those criteria, despite their differences due to time, geographical location and cultural context variances. But unlike historical mosques, those criteria are not being adhered to in modern mosques, so differences in those modern mosques are seen even within limited localities.

The study and analysis of modern mosques in Palestine shows that those mosques do not follow the general planning criteria that were adopted in Palestine's historical mosques, and it does even show that there are no historical influences in the design of new mosques. Additionally, the study shows that the differences have become evident in modern mosques and that the differences have become their prominent characteristic, in the absence of a common language and common general aspects. This indicates individuality in planning and an increase in the personal influence, be it that of the designer or that of a responsible authority, in the design. This is in contrast to the case of historical mosques when they used to be designed according to clear rules that had formed a methodology and a common language known to all concerned.

This research, in addition to identifying the characteristics of mosques in Palestine, looks at a number of modern and old mosques in Palestine and compare their design ideas with the general mosques' design criteria. It does also consider some of the differences that are seen between 1948 Palestine's mosques on the one hand, and those of the West Bank on the other.